

جبران خليل جبران (١٨٨٣-١٩٣١)

قصيدة المواكب:

في المواكب قصيدة جبران المطولة الصادرة في سنة ١٩١٩م ، نجده يختزل حقائق الحياة الى صوتين : صوت الظاهر ، وصوت الحقيقة او صوت الباطن . الصوت الأول هو جزء من تاريخ جبران وتجربته ، اذ قدمت الدنيا لجبران في واقعه وأهله ، تجربة مرة ومعاناة ومآسي لا تنسى. غير ان ذلك ليس كل الحياة أو كل الحقيقة ، لقد علمته ثقافته ان ذلك ليس الا مظاهر وأعراض "حقيقة" اسمى من خير الظاهر وشره . والحوار بين الصوتين او التيارين ، حوار في ذات جبران ، الأول يمثل ظاهر الحياة في خيرها وشرها :

الخير في الناس مصنوع إذا جبروا والشر في الناس لا يفنى وإن قبروا

فأفضل الناس قطعاً يسير بها صوت الرعاة ومن لم يمش يندثر

فيجيب الصوت الآخر ، ان الحياة وحدة ، لا ظاهر ولا باطن ، لا خير ولا شر ، بل استسلام لنظام شامل ولحكمة سرمدية :

- ليس في الغابات راع * لا ولا فيها القطيع

- ليس في الغابات دين * لا ولا الكفر القبيح

- ليس في الغابات عدل * لا ولا فيها العقاب

والصراع بين الصوتين يستغرق القصيدة بكاملها، ولعله صراع لم يحسم في نفس جبران رغم الإيحاء الذي يتسرب انه قد حسم فعلا ، القصيدة تحتوي على روائع من شعر جبران الباقي الأثر :

- ليس في الغابات موت * لا ولا فيها القبور

فالذي عاش ربيعاً كالذي عاش الدهور

- هل اتخذت الغاب مثلي منزلاً دون القصور

فتتبع السواقي وتسلفت الصخور

هل تحممت بعطر وتنشفت بنور

هل جلست العصر مثلي بين جففات العنب

والعناقيد تدلت كثریات الذهب
هل فرشت العشب ليلاً وتلحفت الفضا
زاهداً فيما سيأتي ناسياً ما قد مضى

ونجده في قصيدته هذه يهاجم طريقة فهم الدين عند بعض الناس حيث تغلب عليهم السمة التجارية فهم يعبدون الله من اجل اصلاح الأحوال الدنيوية او الرغبة في الجنة او الخوف من النار وهذا ما اشار اليه بقوله :

والدين في الناس حقلٌ ليس يزرعه غير الألى لهم في زرعه وطُرُ
من أمل بنعيم الخلد مبتشرٍ ومن جهولٍ يخاف النار تستعرُ
فالقوم لولا عقاب البعث ما عبدوا رباً ولولا الثواب المرتجى كفروا
كأنما الدين ضربٌ من متاجرهم إن واطبوا ربحوا أو أهملوا خسروا

ولابد من الإشارة الى ان القصيدة وان كانت من روائع شعر جبران الفلسفي ، الا ان هذا لا يعني ان كل ما فيها شعر فلسفي حقيقي ، فالقصيدة ككل قصيدة فلسفية ، غير انها ليست كلها ادبا او شعرا فلسفيا . وما يهمنا حقا ان لا يخسر الشعر ذاته حين يحمل هموم الفلسفة . المواكب قصيدة مسكونة بالفلسفة ، فيها كما يرى بعض الدارسين روائع من الشعر الفلسفي ، لكن بعضا آخر من شعرها يخلو من الشعر ليتحول نظما مفتغلا ركيكا ، يحق لنا ان نتساءل معه عن مدى حاجة جبران اليه وهو الذي تدثر بلغة الشعر في كل كلمة خطها ، وما ألوان الفاظه الا احساس ومشاعر اكثر جمالا وعمقا ، بل واكثر شعرا من بعض شعر المواكب . ولعل الزام جبران نفسه بقافية ووزن وعلى مدى قصيدة مطولة قد قاده ، رغم بعض النجاحات التي تحققت فعلا الى تكلف وضعف ، خذ مثلا بعضا من تلك الركائز التي تحمل فلسفة غير انها ليست بشعر فلسفي :

- ليس في الغاب لطيفٌ لينه لين الجبان

- ليس في الغاب ظريفٌ ظرفه ضعف الضئيل

- ليس في الغابات عزمٌ لا ولا فيها الضعيف

شعر كهذا ، اذا اجيز تسميته شعرا ، ليس شعرا فلسفيا بالمعنى الحقيقي او هو ادنى مستويات الأدب الفلسفي .